إشكالية الدين

في

الوطن العربي

من منظور علم الاجتماع الإسلامي

إعداد

أ. فريد بونيفة

مقدمة:

يعتبر الدين أحد أهم مكونات المجتمعات العربية منذ أن منّ الله عليها بالإسلام وجعلها خير أمة أخرجت للناس. لكننا إذا ألقينا نظرة إلى واقعها المعيش، نجدها تعيش واقعين متناقضين: أحدهما يعكس مدى تمسك المسلمين بدينهم والتعلّق به الذي لا شك فيه ولا شبهة، ولا أدلّ على ذلك من التنافس الشديد على بناء المساجد التي تفيض بجموع المصلين، والإقبال المتزايد على أداء مناسك الحج والعمرة، والانتشار الواسع للحجاب، وغير ذلك من مظاهر الالتزام والتدين في أوساط الشباب. و في الوقت نفسه، نرى تقاعسا في الالتزام ببعض التعاليم الإسلامية، وخاصة فيما يتعلق بالسلوكيات والممارسات في الحياة اليومية، وذلك في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كانتشار الرشوة والمحسوبية وتزوير الوثائق والتصريح الكاذب في الوثائق الرسمية في المعاملات الإدارية. وحرمان البنت من الميراث، والمفاضلة بين البنين والبنات في المعاملات الأسرية. وإنهاك البلاد بالتهرب الضريبي وتهريب العملة والمواد التموينية والوقود عبر الحدود، واحتكار السلع وعمليات القرصنة للماء والكهرباء وعبر شبكة الإنترنيت في المعاملات الاقتصادية. وعدم الاكتراث بنظافة الشوارع والتدخين في القاعات العامة والمحافظة على المحيط في معاملاتنا مع البيئة. وإرهاب الطرقات، والبذاءة وفحش الكلام وغيرها من الظواهر السلبية، حتى غدت – كما يقول الشيخ محمد الغزالي– ((الصورة التي تقدّم –عالميا– لدار الإسلام أنها الدار التي ينتهب فيها المال العام، ويسودها حكم الفرد، وتهان فيها كرامة المرأة، بل تضيع حقوقها. وأن

شوارعها ملأى بالقمامة، ومدنها وقراها مظهر التخلّف المادي والأدبي، وأن الفوضى والتقطع هما الرباط الذي يسود الجماهير. وأن المصلحين الدينيين لا جؤار لهم إلا بحرب التصوير والغناء والسفور والتلفاز)).[1]

وهنا يقع الإشكال والمفارقة، حيث يستوجب إعادة النظر في حقيقة التدين، والبحث عن مكمن الخلل في مجتمع يقول إنه متدين ومحافظ.

١ – محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، شركة نهضة مصر، ط ٧، مصر، أكتوبر ٢٠٠٥، ص ٤٦.

أولا- تعريف الدين:

أ- تعريف الدين في اللغة: تطلق كلمة الدين في اللغة العربية على عدة معان منها: الجزاء والمكافأَة، الحسابُ، الطاعة، الذل، العادة والشأْن، القضاء.[١] وجملة القول: إن كلمة دين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يُعظّم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كان خضوعا وانقيادا، وإذا وصفا بها الطرف الثاني كان أمرا وسلطانا وحكما وإلزاما، وإذا نظر بها إلى أمر الرباط الجامع بين الطرفين كانت الدستور المنظم لتلك العلاقة أو المظهر الذي يعبر عنها.[٢]

وأما كلمة الدين في اللغة الأجنبية فإنها تترجم إلى Religion باللغتين الفرنسية والإنجلزية، وهي مشتقة من اللاتينية Religio وتدل في الأصل على معنى الربط أو الارتباط.[٣]

وهنا تبدو الترجمة التي تتداولها المعاجم والقواميس لكلمة Religion من اللغة العربية إلى غيرها ترجمة خاطئة، وهنالك فرقاً واسعاً جداً بين كلمتي "دين" و Religion . فكلمة "دين" في اللغة العربيَّة تحمل عِدَّةَ معانٍ كما ذكرنا آنفا.. أما كلمة Religion لا تحمل

---

١ – ابن منظور، لسان العرب ، دار صادر، الجزء ١٣، ط ١، بيروت، بدون سنة، ص ١٦٤.

٢ – بكر زكي عوض وغيره (مؤلف جماعي)، موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، مصر، ص ٢٩٣. أنظر موقع وزارة الأوقاف المصرية. http://www.islamic-council.com/

٣- Dictionnaire Le Robert pour tous, paris,١٩٩٥, p ٩٦٠.

إلا معنى الطقوس، ولا تحمل المعاني التي تحملها كلمة "الدين"؛ فمن الخطأ أن نترجم كلمة Religion بـــ "دين" فالفرق واسع، ولا يوجد لدى غير العرب لفظة تعادل كلمة "دين". والإسلام دينٌ يحمل جميع المعاني السابقة، لتجتمع كلها في المعنى الرئيس لكلمة دين: منهج كامل تام للحياة كلها، الدنيا والآخرة: "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا".(المائدة ٣).[١]

ب- تعريف الدين في الإسلام: قدّم علماء المسلمين تعريفات متعددة للدين، فقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاويه كلاما مطوّلا عن حقيقة الدين فقال: وحقيقة الدين: دين رب العالمين، هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج. فالشرعة هي الشريعة قال الله تعالى:"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا".. والمنهاج هو الطريق، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهي حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره، فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيهم: "إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين". ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى:"ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه" عام في كل زمان

---

١ - عدنان علي رضا النحوي، مفهوم الدين بين الحقيقة والتحريف! ، مجلة البيان، يصدرها المنتدى الإسلامي، المملكة العر بية السعودية، ١٤٢٧هـــ، العدد ٢٢٨، ص ٤.

ومكان.. فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم كما في الصحيحين عن النبي ﷺ قال "إنا معشر الأنبياء ديننا واحد".[١]

ويقول الشيخ رشيد رضا: ((الدين عرَّفه علماء المسلمين بأنه وضع إلهي، سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل، وإن شئت قلت: إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية. وقواعده عندهم ثلاث: تصحيح العقائد، وتهذيب الأخلاق، وإحسان الأعمال. والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات. ومن الثاني: الأحكام بأنواعها، قضائية ومدنية، وسياسية وحربية..)).[٢]

وجاء في إصدار للموقع الخاص بوزارة الأوقاف السعودية، مفهوم الدين في الاصطلاح الإسلامي: الدين هو الإيمان بذات إلهية جديرة بالطاعة والعبادة من خلال النصوص التي تحدد صفات تلك الذات، وتبين القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها.[٣]

---

١ – أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، الجزء ١١ ص ص ٢١٩، ٢٢٠. (بتصرف).

٢– محمد رشيد رضا، الدين والدولة أو الخلافة والسلطنة، مجلة المنار: ١٢ ربيع الثاني ١٣١٧هـ ١٩ أغسطس – ١٨٩٩م.

٣– الدين في الاصطلاح الإسلامي، وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات، ص ١. موقع وزارة الأوقاف السعودية http://www.moia.gov.sa/

وعرفه د.محمد دراز بأنه ((وضع إلهي يرشد إلى الحق في الإعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات)).[1] وتبنى د. عبد الله الخريجي التعريف الذي ساقه د. درّاز، وأضاف و ((بناء على قوله تعالى:"إن الدين عند الله الإسلام"، وأقصد بالإسلام كل ما أوحى به الله من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ. وعلى ذلك يكون الإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والإخلاص من الشرك، قال تعالى:"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون")).[2]

وجاء في مجلة البحوث الإسلامية السعودية تعريفا للدين بأنه: "وضع إلهي سائق لذوي العقول –باختيارهم إياه– إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل، وهذا يشمل العقائد والأعمال". ومعنى هذا، أن لفظ الدين عند هؤلاء، لا يتناول إلا الأديان السماوية: كاليهودية والمسيحية والإسلام، أما غيرها من الأديان التي اصطلح عليها بعض الناس دون أن يكون لها صلة بالسماء، فليست دينا في نظرهم.

ويرى فريق آخر من العلماء: أن الدين هو "عبارة عن الإيمان والعبادة مهما كانا، فإيمان الوثنيين دين. أو هو عبارة عن الإيمان بقوة أو قوات سائدة تحكم الأرض، وعن عبادة تلك القوة أو القوات، فيقال: دين حق، ودين باطل". ومعنى هذا: أن الدين عند هؤلاء يشمل الأديان السماوية وغيرها من الأديان التي هي من صنع البشر، ولا تمت إلى الله

---

١ – محمد عبد الله درّاز، الدين. بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم للنشر والتوزيع، ط ٣، القاهرة، ٢٠١٠، ص ٦٣.

٢ – عبد الله الخريجي، علم الاجتماع الديني، سلسلة دراسات من المجتمع العربي السعودي (الكتاب ٩)، دار رامتان، ط ٢، المملكة السعودية، ١٩٩٠، ص ٣٥.

بسبب، وقد يشهد لهذا، أن الله سمى الديانات غير الحقة دينا فقال: "وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، وقال: فيما أمر به نبيه محمدا ﷺ أن يقوله لكفار قريش: "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ". والواقع أنه لا خلاف بين الفريقين: فالفريق الأول نظر نظرة خاصة، والفريق الثاني نظر نظرة عامة.[1]

ج- تعريف الدين في علم الاجتماع: لا يوجد تعريف لمفهوم الدين متفق عليه بين علماء الاجتماع، وعندما حاول الباحثون منذ القرن ١٨م تعريفه وتحديد ماهيته واجهوا صعوبة كبيرة، ويرجع ذلك إلى أن مفهوم الدين لا يقتصر على دين بذاته، وإنما يتسع لجميع الديانات القديمة والحديثة، البدائية والمتحضرة، السماوية وغير السماوية، الحية منها والمندثرة، وهي ديانات كثيرة ترتكز على مجموعة من العقائد والشعائر المتباينة، والتي لا تكاد تجمعها وحدة عامة.[2] ويؤكد جيدنز أن ((المعتقدات الدينية هي من التنوع والتعدد والتباين بحيث لا يستطيع الباحثون والدارسون إعطاء تعريف واسع جامع مانع للدين.. بيد أن ثمة منظومة من الخصائص التي تشترك فيها جميع الديانات. فهي تتضمن مجموعة من الرموز التي تستدعي الاحترام وتوحي بالرهبة. كما أنها

١- محمد حسين الذهبي، الدين والتدين، مجلة البحوث الإسلامية، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، العدد ١، ١٣٩٥ هـ، ص ٤٩.

٢ - سلوى علي سليم، الإسلام والضبط الاجتماعي، دار التوفيق النموذجية، ط ١، القاهرة ،أكتوبر ١٩٨٥، ص ١١٤.

ترتبط بمجموعة من الطقوس والشعائر أو الممارسات الاحتفالية التي يؤديها من يعتنقون هذا المذهب الديني أو ذاك)).[1]

ويعرف إحسان محمد الحسن الدين بأنه ((نظام عقلاني منطقي موزون يتكون من مجموعة المعتقدات والمبادئ والقيم والطقوس السلوكية الخاصة بعبادة الله سبحانه وتعالى والخضوع لمشيئته وأوامره السماوية وتعاليمه الربانية والالتزام برسالته الإلهية التي ينزلها على الناس عبر الرسل والأنبياء الصالحين الذين هم بمثابة حلقة الوصل بين الله والناس المطلوب هدايتهم وتقويم سلوكهم. غير أن الأديان سواء كانت سماوية كالإسلام والمسيحية واليهودية، أو فلسفية كالبوذية والهندوسية والكونفوشية.. أو البدائية.. تختلف عن بعضها البعض بمفاهيمها وأفكارها ومعتقداتها وممارساتها وتنظيماتها. غير أن الشعور الديني الذي ينتاب المؤمن إنما هو شعور واحد مهما يكن نمط الدين الذي يؤمن به)).[2]

ويعرّفه محمد عاطف غيث بقوله: ((الأديان هي أنساق للمعتقدات، والممارسات، والتنظيمات، تشكل الجانب الأخلاقي للسلوك. المعتقدات الدينية هي تفسيرات أو تأويلات للخبرة المباشرة بالرجوع إلى البناء المطلق للعالم، وإلى القوة فوق الطبيعية التي تسيطر على الكون وظواهره. والسلوك الديني سلوك مقدس وطقوس تفرض على الشخص

---

١ – انتوني جيدنْز، علم الاجتماع، تر: فايز الصُيّاغ، المنظمة العربية للترجمة، ط ٤، لبنان، ٢٠٠٥، ص ص ٥٦٩، ٥٧٠.

٢ – إحسان محمد الحسن، مبادئ علم الاجتماع، دار وائل للنشر والتوزيع، ط ١، الأردن، ٢٠٠٥، ص ٢٧٩.

ممارسات مقننة تحدد علاقة الشخص بالقوة العليا. والتنظيم الديني يشير إلى عضوية الأفراد المؤمنين في مجتمع معين، ويفرض عليهم مهام دينية خاصة)).[1]

وعرّفه نخبة من علماء الاجتماع المصريين بأنه ((نسق المعتقدات والممارسات، والقيم الفلسفية المتصلة بتحديد ما هو مقدس، وبفهم الحياة، والتخلص من مشكلات الوجود الإنساني)).[2]

وعرّفه زيدان عبد الباقي بأنه ((الالتزام بعقيدة دينية -أو نحلة- معينة، وأداء فرائضها ومناسكها وطقوسها وشعائرها، وكل ما يتصل بها من العبادات نحو المعبود المعترف به من هذا الدين أو النحلة. وما يترتب على هذا الالتزام الديني من تطبيقات تتصل بالشروط الدينية لكافة العلاقات والمعاملات في المجتمع)).[3]

ويعرّفه أحمد بدوي الدين بأنه ((مجموعة معتقدات تؤمن بها جماعة ما وتكوّن نظاما متصلا وتتعلق في الغالب بعالم ما بعد الطبيعة.

---

١ – محمد عاطف غيث، قاموس علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٣٨٢.

٢ – مؤلف جماعي (نخبة من أساتذة قسم الاجتماع)، المرجع في العلوم الاجتماعية لطلاب قسم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، بدون سنة، ص ٣٨٢.

٣ – زيدان عبد الباقي، علم الاجتماع الديني، دار غريب، القاهرة، بدون سنة، ص ٥٤.

وممارسة شعائر وطقوس مقدسة، والاعتقاد في قوة روحية عليا، وقد تكون هذه القوة متكثرة أو أحادية)).[1]

ونستشف من التعريفات السابقة أنه لا يوجد إجماع حول تعريف محدد لمفهوم الدين، ففي سنة ١٩١٢ أورد "لوبا" Leuba ٤٩ تعريفا، ومع هذا لا يوجد بينها تعريف متفق عليه أو حقق حداً أدنى من الاتفاق بين الباحثين. وقد عقدت عدة مؤتمرات وندوات علمية لتحديد معنى الدين، فشلت جميعها في التوصل إلى تعريف يتفق حوله علماء الاجتماع.[2]

د- الفرق بين الدين والتدين(religiosity): يستفاد من التعريفات السابقة أن الدين هو مجموع النصوص المقدسة (القرآن والسنة) التي تحدد علاقة الإنسان مع الله وعلاقته مع البشر والمجتمع ككل، ومن ثم يشتمل دين الإسلام على الجوانب التالية: العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات.

أما التدين فهو عبارة عن مجموع التفسيرات والتأويلات للنصوص الدينية، وأيضا مدى التزام المؤمن بتعاليمها وممارسته لها في حياته اليومية، لأنه شتان بين النص والتطبيق، حيث غالبا ما يتراوح بين الغلو والتشدد وبين التساهل والإفراط، فهذا التفاوت بين الأفراد يُسمى تديناً،

---

١ – أحمد زكي بدوي، معجم المصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦، ص ٣٥٣.

٢ – نبيل توفيق السمالوطي، الدين والبناء الاجتماعي، الجزء ٢، دار الشروق، ط ١، ١٩٨١، المملكة العربية السعودية، ص ١٥.

فالدين واحد وهو الإسلام، أما التدين يختلف ويتباين بحسب الطبقات والفئات على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والمهنية والعمرية إلخ.. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار "التدين" ظاهرة اجتماعية، قابلة للدراسة الموضوعية والقياس، ونكون عندئذ بصدد عدة مستويات من التدين، تلعب مؤسسات التنشئة الاجتماعية دورا فعالا في تشكيله وتحديد أنماطه. إذن يوجد فرق واضح بين الدين والتدين، وهذا عام في جميع الأديان.

وينسجم هذا التعريف مع التعريف الذي أوردته مجلة البحوث الإسلامية: ((أما التدين، فهو التمسك بعقيدة معينة، يلتزمها الإنسان في سلوكه، فلا يؤمن إلا بها، ولا يخضع إلا لها، ولا يأخذ إلا بتعاليمها، ولا يحيد عن سننها وهديها. ويتفاوت الناس في ذلك قوة وضعفا، حتى إذا ما بلغ الضعف غايته، عد ذلك خروجا عن الدين وتمردا عليه)).[1]

وتجدر الإشارة إلى النبي ﷺ قد أعطى –وهو القدوة والأسوة– أروع الأمثلة في تجسيد النص الديني على أرض الواقع، وذلك عندما سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلقه، فقالت: ((كان خلقه القرآن))،[2] أي أن سلوكه كان التطبيق العملي لتعاليم القرآن.

---

١ – مجلة البحوث الإسلامية، الدين والتدين، الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء، العدد ١، رجب–رمضان، ١٣٩٥ه، المملكة العربية السعودية، ص ٥١.

٢ – رواه مسلم وغيره.

ثانيا- مؤسسات التنشئة الدينية:

تبدأ التنشئة الدينية للفرد مع أولى مراحل تنشئته الاجتماعية، يتزود من خلالها بالمعارف الدينية والأنماط السلوكية، حيث يمكن حصر أهم مصادرها في المؤسسات التالية:

١- **الأســـــرة**: الأسرة هي المحضن الأول للإنسان وفيها يعيش أطول أطوار حياته، فيتشرب منها العقيدة والأخلاق والأفكار والعادات والتقاليد، وتكون ((إما مصدر خير للإنسان، أو معول هدم للدين والأخلاق والقيم)).[١] وقد أولى الإسلام عناية كبيرة بتربية الأولاد، وحثّ الآباء على تعليم الأبناء أصول الدين وقواعد السلوك التي ترتبط بمفهوم الحلال والحرام، والثواب والعقاب.. وتدريبهم على أداء الشعائر الدينية، وبالتالي تُلقى على كاهلهم مسؤولية التربية الإيمانية والخلقية، ((والمقصود بالتربية الإيمانية ربط الولد منذ تعقله بأصول الإيمان وتعويده منذ تفهمه أركان الإسلام وتعليمه من حين تميزه مبادئ الشريعة الغراء.. أما التربية الخلقية فهي مجموعة المبادئ والفضائل السلوكية والوجدانية التي يجب أن يتلقنها الطفل ويكتسبها ويعتاد عليها منذ تمييزه وتعقله.. والفضائل الخلقية والسلوكية والوجدانية هي ثمرة من ثمرات الإيمان الراسخ والتنشئة الدينية الصحيحة. ولا شك أن الأخلاق

---

١ – خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، سلسلة المنظومة التربوية (٥)، دار عالم الكتب، ط ١، المدينة المنورة، ٢٠٠٠، ص ٣٠٧.

هي الدعامة الأولى لحفظ كيان الأمم، ولهذا نرى الباحثين والفلاسفة قد اتفقت كلمتهم على وجوبها للفرد الصالح نفسه وللمجتمع في جملته)).[1]

ومن ثم تعتبر الأسرة الوحدة الأساسية في بناء المجتمع، تقوم بوظيفة إعداد الفرد دينيا وخلقيا، وتطبعه على نوع التدين التي تغرسه فيه منذ الصغر، كما أشار إلى ذلك الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ:((كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..)) الحديث.[2] بمعنى أن الطفل يولد صفحة بيضاء، وله استعداد فطري لقبول ديانة أبويه اللذين يترعرع في أحضانهما، وبالتالي يكون للأسرة الدور الفعال في إكساب الطفل معتقداته وقيمه وتوجهاته وأنماط السلوك الدينية، وهذا يعني أن مصير الأولاد يتحدّد إلى حد كبير جدا بتربية الوالدين لهم، وبنوع التنشئة الدينية التي يترعرع الأطفال منذ اللحظات الأولى من حياتهم، و إلى هذا المعنى يشير النبي ﷺ:((كلكم راع و كلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته)).[3]

---

١ – مواهب إبراهيم عياد، ليلى محمد الخضري، إرشاد الطفل وتوجيهه في الأسرة ودور الحضانة، منشأة المعارف، ١٩٩٣، الإسكندرية، ص ص ٦٥، ٦٦.

٢ – رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٣ – رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنه.

٢- **المؤسسات التعليمية**: تعتبر المؤسسات التعليمية على اختلاف أطوارها واحدة من أهم مؤسسات التنشئة الدينية، ولعلها تأتي في المرتبة الثانية بعد الأسرة من حيث الأهمية والمسؤولية في تعليم النشء، وإعداد الأجيال، وبينهما علاقة جدلية وتكاملية، ((فالطفل الذي يعيش في أسرة تحتقر المتدينين على سبيل المثال، سوف يتشرب هذه القيم من خلال ما يراه ويسمعه من والده ووالدته، ثم تستقر عنده هذه القيم حين يأتي إلى المدرسة فيجد معلماً متديناً فإن نظرته لهذا المعلم ستكون نظرة احتقار وانتقاص، نظرة تلقاها من خلال ما غرسته الأسرة عنده. والنموذج الآخر الطفل الذي يعيش في أسرة متدينة تحسن التربية، وتربي بطريقة صحيحة، فيأتي المدرسة، وهي أول تجربة له مع عالم مفتوح، وأول لقاء فعلي خارج الأسرة .. تكون الأسرة هنا قد أسهمت في غرس هذه القيم التي يتصرف من خلالها من حيث لا يشعر فيحكم على الناس من خلال ما تلقاه، فنظرته إلى معلمه لا تنفك عن نظرة الأسرة للآخرين وتقييمها لهم)).[١]

وتعمل المدرسة أيضا على استكمال ما تعلمه الطفل في أسرته، ((فتقوم بتدعيم العادات والاتجاهات السليمة التي تكونت في الأسرة، وتقوّم

١ – محاضرات محمد بن عبد الله الدويش، تحت عنوان: الرسالة التربوية للأسرة، موقع إسلام ويب: http://audio.islamweb.net

ما اتخذه من عادات واتجاهات غير سوية، وتعاونه في التغلب على أنواع الصراعات التي يعانيها)).[1]

غير أن الاختلاف بين المؤسسات التعليمية يكمن في نوع التعليم وأسلوبه، ونقصد بنوع التعليم المحتوى العلمي والمواد الدراسية المقررة على الطلاب، فالتعليم الديني مثلا يختلف تأثيره في بناء شخصية الفرد وقيمه وميولاته عن التعليم في مجال العلوم التطبيقية أو التخصصات الأخرى. وكذلك الأسلوب التعليمي أو المنهج العلمي في دراسة العلوم له تأثيره في تنشئة الطلاب، فإذا كانت العلوم الكونية والنظرية والتطبيقية تدرّس وفق منظور إسلامي وغير منفصلة عن الشريعة الإسلامية فإنها تُسهم في تنمية الوازع الديني للطالب والمتعلم، وبالتالي في تنمية مستوى تدينه. أما إذا خلت العلوم من تلك الرؤية الإسلامية، وأخذ الطالب كل ما يرد عن العالم الغربي وكأنها أمور مسلّم بها غير قابلة للفحص والنظر والنقد، فإنه ينشأ لا محالة مفتقرا إلى هذا الوزاع. ولهذا ينبغي النظر في محتويات المكتبات المدرسية والجامعية في الدول الإسلامية وتطهيرها من مثل تلك المناهج الهدّامة للأخلاق الإسلامية المتعارضة مع ديننا الحنيف.[2]

فدور المؤسسات التعليمية لا يقتصر على تلقين التلميذ والطالب العلم والمعرفة فحسب، بل تقوم أيضا بغرس القيم والمعايير والأنماط

---

١ – حسين عبد الحميد رشوان، ميادين علم الاجتماع ومناهج البحث العلمي، المكتب الجامعي الحديث، ط ١٠، مصر، ٢٠٠٤، ص ٢١٢.

٢ – خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق ، ص ص ٣٤٨، ٣٤٩.

السلوكية، بما تتضمنه الفصول الدراسية من برامج ومقررات ومناهج تعليمية، من دور الحضانة إلى المعاهد والكليات والجامعات.

٣- **المســـــجد**: تُعدُ المساجد ومؤسسات التعليم الديني كالزوايا والكتاتيب من أهم مؤسسات التنشئة الاجتماعية والدينية لروّادها وأتباعها، لاسيما وأن المسجد لم يكن في صدر الإسلام مجرد مكان لأداء الشعائر، بل كان جامعا وجامعة، ودارا للعلم ونشر الدعوة، ومنبرا إعلاميا، وهيئة للقضاء والفتوى، ومركزا لاستقبال الوفود، وبرلمانا سياسيا، وثكنة لعقد الألوية وانطلاق الجيوش للجهاد، ومنزلا للضيافة وجمع الزكوات للفقراء والمحتاجين، وغيرها من الوظائف المختلفة. فتخرج منه العباد والزهاد، وأساطين العلم وفطاحل المعرفة، ودهاة السياسة والزعماء، وقادة الجيوش والفاتحين العظام، حتى بلغ صيت بعض المساجد والجوامع آفاق الأرض، وطارت شهرتها في المشرق والمغرب، وغدت منارات للعلم والحضارة والعمران، ((فالمسجد الحرام بمكة أول بيت وضع للناس.. ويليه في المنزلة المسجد الأقصى.. ومسجد قباء أول ما بني من المساجد في الإسلام.. ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة تشد إليه الرحال.. وتوالت بعد ذلك الإنشاءات للمساجد في كل مدينة و في كل بقعة انتشر فيها الإسلام، ففي مصر بني الجامع الأزهر عام ٣٥٨ه، كما أنشئ مسجد أحمد بن طولون بالقاهرة (الفسطاط) عام ٢٦٥ه، و في دمشق أنشئ الجامع الأموي عام ٩٦ه، و في بغداد أنشأ الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور جامع المنصور عام ١٤٥ه، و في عام ٥٠ه بنى عقبة بن نافع جامع القيروان، و في تونس أنشئ جامع الزيتونة عام ١١٤ه بناه عبيد الله بن الحبحاب، و في قرطبة أنشئ جامع

قرطبة عام ١٧٠ه بناه عبد الرحمن الداخل.. وغير ذلك من المساجد التي عمّت المشرق والمغرب، وكانت مضرب الأمثال في الإثراء العلمي والفكري والتربوي)).[١]

وقد ظل المسجد محافظا على وظائفه ردحا من الزمن، حتى أخذت تتراجع لأسباب سياسية واستعمارية وحضارية وسوسيولوجية موضوعية .. ولعل من الأسباب السوسيولوجية يتمثل في التغير الاجتماعي الحاصل، وتطور بيئة المجتمع العربي، واتساع رقعة دار الإسلام مع الفتوحات، مما استوجب تقسيما اجتماعيا للعمل، باستحداث مؤسسات متخصصة، شاركت المسجد في وظائفه، فظهرت الزاوية والكتّاب والمدرسة لتشاركه في الوظيفة التعليمية، وظهرت دار الإمارة لتشاركه في الوظيفة السياسية، وظهرت الثكنة لتشاركه في الوظيفة العسكرية، وظهرت المحاكم لتشاركه في وظيفة القضاء، وظهرت البنوك لتشاركه في المعاملات المالية والاقتصادية، وهكذا بالنسبة لسائر المؤسسات الاجتماعية الأخرى.

وكان من الطبيعي أن يطرأ هذا التغير في وظيفة المسجد بما حوله من مؤسسات الدولة الرسمية، وتكون بينها علاقات تعاون وتكامل. إلا أن ما ليس طبيعيا أن يُحجِم المسجد في أداء الوظيفة التربوية ويكتفي بإقامة الشعائر التعبدية. و((ربما كان من أسباب تقلص دور المسجد التربوي ظهور المدرسة الإسلامية التي تمكنت من دراسة العلوم

---

١ – محمد علي محمد المرصفي، في التربية الإسلامية. بحوث ودراسات، مطابع التراث العربي، ط ١ ، مصر، ١٩٨٧، ص ١٧٤.

التجريبية والتي تحتاج إلى معامل خاصة ونظام معين لا يتسع له المسجد. وتألقت الوسائط التربوية بمؤسساتها المختلفة، والتي تمثلت في المدرسة والجامعة ووسائل الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفاز، الأمر الذي أوجد الكثير من نوافذ المعرفة، والتي أطلت على الإنسانية بكثير من الفكر المستورد والتيارات المنحرفة.. سادها التقليد السافر للفكر الغربي.. اختفى –معها– الكثير من القيم الإسلامية الخلاقة، والأسس التربوية السليمة في المنزل والشارع وأماكن العمل، واضمحل بالتالي الدور التربوي للمسجد.. وبهذا اقتصرت وظيفة المسجد الآن في كثير من بلاد الإسلام على تأدية الصلوات، وإعطاء بعض دروس الوعظ التي تأتي في الكثير متناثرة وغير هادفة أو مترابطة، وكان من ثمرة ذلك أن انتشرت الكثير من العادات السيئة، والمستجلبة من وسائل الإعلام الحديثة، فانطمست قيم أخلاقية كثيرة، وسادت صفات أخرى ذميمة وممقوتة)).[1]

٤- **جماعة الرفاق**: ويطلق عليها أيضا جماعة الأقران وجماعة النظراء والجماعة المرجعية والشلة وغيرها من المصطلحات، لكنها ((تكاد تشير إلى شيء واحد وهو تلك الجماعة التي يلجأ إليها الفرد خارج إطار أسرته))،[2] حيث يكون لها الأثر البالغ في تكوين شخصية الإنسان وأفكاره وتصوراته وقيمه وتوجهاته. حيث ((وُجد أن هذه

---

١ – محمد علي محمد المرصفي، في التربية الإسلامية. بحوث ودراسات، نفس المرجع، ص ١٧٧.

٢ – طارق عبد الرؤوف عامر، أصول التربية الإجتماعية والثقافية والإقتصادية، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ٢٣٢.

الجماعة لها إسهام فاعل في تعزيز المعتقدات الدينية للطفل))،[1] وتستمرّ مع مرحلة البلوغ والرشد، إذ يكون في هذه المرحلة ميّالا إلى قضاء معظم أوقاته مع جماعة الرفاق في المدرسة والشارع والجمعيات والنوادي الرياضية.. أكثر من قضائه مع أسرته، يتزود منها القيم الاجتماعية إيجابية كانت أم سلبية، ويظل هذا التأثير مستمرا إلى أن يصبح الشخص شابا ثم كهلا.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن ((أماكن العمل سواء كانت رسمية أو تطوعية تُعدّ من جماعات الرفاق إلا أنه يغلب عليها الطابع الرسمي في العادة، وهي مؤسسات اجتماعية ذات تأثير هام على تربية الإنسان بعامةٍ نظراً لما يترتب على وجوده فيها من احتكاك بالآخرين، إضافة إلى أنه يقضي فيها جزءا ليس باليسير من وقته الذي يكتسب من خلاله الكثير من المهارات والعادات والطباع والخبرات المختلفة)).[2]

وتتوسع دائرة الجماعة في الوقت الحاضر خارج إطار الحي والعمل والنادي بفضل التكنولوجيا الحديثة، فأصبح الشباب يكوّنون فيما بينهم جماعات لهم اهتمامات وانشغالات وطموحات مشتركة عن طريق مواقع شبكات التواصل الاجتماعي العابرة للحدود (سكايب والفيسوبك وتويتر واليوتيوب..)، فغدت هذه التكنولوجيا أداة للتواصل بين الأفراد

---

١ – محمود شمال حسن، مرجعيات الجماعات. المرجعيات وأثرها في تقرير توجهات الأفراد، مؤسسة الإنتشار العربي، ط ١، بيروت، ٢٠١٠، ص ٤٢.

٢ – صالح بن علي أبو عراد، مقدمة في التربية الإسلامية، دار الصولتية للتربية، الرياض، ١٤٢٤هـ.

والجماعات ومن ثم يظهر تأثيرها في قيمهم ومعاييرهم واتجاهاتهم و في التنشئة الدينية لديهم.

٥- **وسائل الإعلام**: تسهم وسائل الإعلام المختلفة في التنشئة الدينية وهي من أكثرها تأثيرا في العصر الحديث، خصوصا مع السماوات المفتوحة ومع الانتشار الواسع في استخدام الإنترنيت أين بات العالم برمته عبارة عن قرية صغيرة. وتستهدف المؤسسات الإعلامية المقروءة والمسموعة والمرئية مختلف الشرائح الاجتماعية، ونجدها أشدّ تركيزا على فئة الشباب والمراهقين لأنهم أكثر الفئات إقبالا عليها وتلقيا منها، وأشدّهم تأثرا وتقبلا للرسالة الإعلامية، وأقلّهم تمحيصا للمعلومة.

وتأتي القنوات الفضائية في مقدمة وسائل الإعلام الجماهيرية الثقيلة، ومن أحدثها وأخطرها في نفس الوقت، ((وقد أشارت الكثير من الدراسات إلى مكانته المتميزة بين وسائل الإعلام والاتصال الأخرى بصفة عامة و في حياة الأطفال بصفة خاصة، حتى قيل إن الطفل اليوم ينشئه ثلاثة هم: الأب والأم والتلفزيون، وبذلك تحوّل التلفزيون إلى مؤسسة للتنشئة الاجتماعية قادرة على منافسة المؤسسات التقليدية الأخرى كالمسجد والمدرسة وغيرها)).[١]

وتكمن خطورة وسائل الإعلام الحديثة باعتبارها سلاحا ذي حدّين، فبقدر ما يكون لها دور في التوعية وتنوير الجمهور المتلقي، بحيث يمكن أن تُستغل استغلالا إيجابيا بما تحتوي برامجها من نشرات إخبارية،

---

١ – بن زروق جمال، أثر التلفزيون على قيم وسلوكيات الأطفال، قسم علوم الإعلام والإتصال، جامعة عنابة، الجزائر، ص ١.

وأشرطة علمية وأفلام وثائقية، ومحاضرات وندوات علمية وغيرها من البرامج التثقيفية والتربوية والتعليمية، تسهم في تربية الأجيال، وتعميم المعارف، وتوجيههم إلى ما فيه الخير ويعود عليهم بالنفع والفائدة، يمكن أيضا أن تُستخدم استخداما خطِرا وسلبيا بما تعرضه من أفلام الإثارة action وأفلام الرعب وأفلام العصابات وما تتضمن من مشاهد العنف والجنس والجريمة والمخدرات.. من شأنها أن تؤدي إلى تبلّد الإحساس وإفساد أخلاق الشباب والمراهقين وتحفزّهم على تبني المواقف العدوانية في حياتهم وقبولها في المجتمع، ومن ثمّ التأثير سلبا على منظومة القيم السائدة في المجتمع. ((وبات من المؤكد أن جلّ وسائل الإعلام العالمية بأساليبها الدعائية البراقة، وبمؤثراتها الإخبارية المرئية والمكتوبة، تدقّ أعماق الأخلاق لدى الفرد، وتهزّها نحو التخلي عن الأخلاق الإسلامية والانصهار في بوتقة الانحلال الخلقي.. و يخشى علماء التربية ونفر من المفكرين العالميين أن يقضي هذا التدني المتتابع في الأخلاق على بقية الباقية من القيم)).[1]

وقد تستخدم وسائل الإعلام استخداما صحيحا وإيجابيا في التنشئة الدينية، بما تمدّه للجمهور المتلقية من الأفلام الدينية كفيلم "الرسالة" والمسلسلات التي تتناول السير الذاتية للشخصيات الدينية التاريخية مثل مسلسل "عمر بن الخطاب"، "خالد بن الوليد"، "رابعة العدوية" وغيرها من الأفلام التي تزدحم بها الشاشات في فترات الذروة في رمضان والمناسبات الدينية، أين تكون المنافسة بين القنوات على أشدّها

١ – خالد بن حامد الحازمي، أصول التربية الإسلامية، مرجع سابق ، ص ٣٦٧.

لاستقطاب الجماهير. أو من خلال البرامج الدينية الأسبوعية التي تركز على الترشيد في الجانب الأخلاقي والسلوكي، وتمكّن الجمهور المتتبع من الاستفسار عن القضايا الشرعية. بالإضافة إلى النقل المباشر لصلاة الجمعة والعيدين عبر الأثير والتلفزيون، والاحتفالات الدينية في المناسبات الدينية مثل الاحتفال بالمولد النبوي وليلة القدر والهجرة النبوية وغيرها. ولا شك أن مثل هذه البرامج تُسهم في التنشئة الدينية وتزويد الجمهور بالمعارف الدينية.

ثالثا- أنماط التدين السائدة في الوطن العربي:

يمكن تحديد عددا من أنماط التدين السائدة في المجتمعات العربية، أسهمت مؤسسات التنشئة الاجتماعية بدورها في بلورتها وتشكيلها نذكر من أهمها:

١- **التدين المعرفي**: يتشكل هذا النمط من التدين من مجموع المعارف الدينية بحيث لا يظهر تأثيرها على السلوك والممارسة. وأكثر من يمثل هذا النمط من التدين المهتمون بعلوم الدين أو حتى المتخصصون في العلوم الشرعية كالطلبة وغيرهم، فنجد عند هذه الشريحة من المثقفين بالثقافة الإسلامية فجوة بين المعرفة والممارسة. ويبدو أن هذا النمط ليس ظاهرة جديدة خاصة بهذا العصر، فهي تعود إلى قرون خلت من تاريخ الأمة الإسلامية، فنجد الإمام أبي حامد الغزالي قد انتقد فئة من الفقهاء والعلماء الذين عاصرهم، ممن اكتفوا بتحصيل العلم الشرعي ولم تحفزّهم المعارف الدينية على الانضباط بتعاليم الإسلام في ممارستهم، من حيث كف الجوارح عن الحرام، وذلك عندما ((أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمّقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات، واغترّوا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم بلغوا من العلم مبلغا لا يعذّب الله مثلهم، بل يقبل في الخلق شفاعتهم، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله، وهم مغرورون))،[١] ثم يفضح زيف تديّن بعض الفقهاء الذين

---

١ – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٣٠٦.

((اقتصروا على علم الفتاوى في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصّصوا اسم الفقه بما سمّوه الفقه وعلم المذاهب، وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة فلم يتفقدوا الجوارح، ولم يُخرسوا اللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولا الرجل عن المشي إلى السلاطين وكذا سائر الجوارح، ولم يحرُسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات. فهؤلاء مغرورون من وجهين: أحدهما من حيث العمل، والآخر من حيث العلم)).[1]

٢- **التدين الشعائري**: ويتمثل هذا النمط في أن يقتصر صاحبه على أداء الشعائر التعبدية كالصلاة والصوم وغيره دون أن يعي مقاصد الإسلام من تشريع العبادات، فهو يؤديها على سبيل العادة والروتين، ولا تكون لها أثر في حياته اليومية، فهو إن دخل المسجد تراه ملكا من الملائكة، وما إن تتخطى قدمه عتبة المسجد يكاد ينقلب إلى شيطانا، فينطبق عليه حديث المفلس الذي أخبر عنه النبي(ص) بقوله: ((أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وسب هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دماء هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)).[2]

---

١ – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، نفس المرجع، ص ١٣١٢.

٢ – رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

والحقيقة المرة أن هذا نمط أكثر المتدينين في الوطن العربي اليوم، لأنهم فصلوا بين حقوق الله وحقوق الناس، يقول مالك بن نبي في هذا السياق: أصبح ((المسلم حين يتخطى عتبة المسجد ينتقل من حال إلى حال أخرى.. إن هناك انفصالا بين العنصر الروحي والعنصر الاجتماعي، هناك افتراق بين المبدأ والحياة. والمسلم يعيش اليوم هذا الانفصال الذي يمزّق شخصه شطرين: شطر ينظم سلوكه في المسجد، وشطر ينظمه في الشارع)).[1]

وينتقد الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتاباته هذا الصنف من المتدينين فيقول:((فبعض المنتسبين إلى الدين، قد يستسهلون أداء العبادات المطلوبة، ويظهرون في المجتمع العام بالحرص على إقامتها، وهم في الوقت نفسه يرتكبون أعمالا يأباها الخلق الكريم والإيمان الحق.. والمتدين الذي يباشر بعض العبادات، ويبقى بعدها بادي الشر، كالح الوجه، قريب العدوان، كيف يحسب امرأ تقيا)).[2]

٣- **التدين المظهري**: يتجلى هذا النمط في الحرص الشديد على الشكليات والمبالغة في الالتزام بالرموز الدينية في الزيّ والمظهر واستخدام العبارات الإسلامية في الخطاب اليومي، تكون على حساب جوهر الدين وحقيقته، ومن ثم تحاول هذه الشريحة من المتدينين أن

---

١ – مالك بن نبي، ميلاد مجتمع. شبكة العلاقات الاجتماعية، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، بدون سنة، ص١٠٥.

٢ – محمد الغزالي، خلق المسلم، دار ريان للتراث، ط ١، القاهرة، ١٩٨٧، ص ص١١، ١٢.

تستهدف المجتمع برمته، من أجل تسويق صورة إيجابية عن الذات، وكسب مكانة اجتماعية. فيكون هذا التدين المظهري في مقابل التدين الجوهري. مع أن النبي ﷺ حذر أمته من مغبة الاهتمام بالجوهر دون المخبر في:((إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم)).[1]

وقد سلط الإمام أبو حامد الغزالي انتقاده لبعض أدعاء التصوف في زمانه بتدينهم المظهري عندما ((اغتروا بالزي والهيئة والمنطق، فساعدوا الصادقين من الصوفية في زيّهم وهيئتهم، وفي ألفاظهم وفي آدابهم ومراسمهم واصطلاحاتهم، وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة.. إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات، فلما تكلّفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم أيضا صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب، وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية.. بل يتكالبون على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزّق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيئ من غرضه)).[2]

٤- **التدين المصلحي**: ويتحقق هذا النمط عندما تتلون الممارسة الدينية بالمصالح الشخصية، وأكثر ما يكون في المعاملات وليس في

---

١ – رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه.

٢ – أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، المرجع السابق، ص ص ١٣٢٣، ١٣٢٤.

العبادات، كأن ينجز شخص مشروعا خيريا لينال منفعة دنيوية أو يحصد أصواتا انتخابية في المجالس النيابية.. وقد خصّص الإمام أبو حامد الغزالي في إحيائه حيزا من النقد اللاذع لممارسات المتدينين من أرباب المال والأعمال في زمانه، حيث اتخذوا من أعمال البر والخير وسيلة لكسب مكانة اجتماعية والسمعة وحب الثناء، فهم ((يحرصون على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وما يظهر للناس كافة، ويكتبون أساميهم بالآجر عليها، ليتخلّد ذكرهم، ويبقى بعد الموت أثرهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك.. وفرقة أخرى، ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين ويطلبون به المحافل الجامعة.. ويرون إخفاء الفقير لما يأخذ منهم جناية عليهم وكفرانا، وربما يحرصون على إنفاق المال في الحج فيحجون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعا)).[1]

٥- **التدين الشعبي**: وهذا التدين أكثر الأنماط شهرة وانتشارا بين عامة الناس، ويطلق عليه العلامة عبد الحميد بن باديس مصطلح "الإسلام الوراثي"، ويعني به الإسلام التقليدي الذي ورثه الفرد عن الآباء والأجداد، فيُعدّ الشخص مسلما بالاسم وشهادة الميلاد، فهو مسلم بالوراثة لأنه أخذ الإسلام كما وجده من أهله، فتجري على لسانه وقلبه كلمات الإسلام، وتباشر أعضاؤه عبادات وأعمالا إسلامية.. ولكنه لم يتعلم يوما شيئا من الإسلام ولا عرف شيئا من أصوله. وبحكم هذه الوراثة يأخذ الإسلام بكل ما أُدخِل عليه من عقائد باطلة أو أعمال ضارة

١- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، نفس المرجع، ص ص ١٣٢٧، ١٣٢٨.

وعادات قبيحة.. بدون نظر ولا تفكير وإنما يتبع فيه الأبناء ما وجدوا عليه الآباء.. وهو إسلام معظم عوام الأمم الإسلامية.. متمسّكة به غاية التمسك لا ترضى به بديلا.[1]

ومن ثم يمكن تحديد جملة من الخصائص التي يتميز بها هذا النمط من التدين:

أ- تقليدي: يرجع توصيف التدين الشعبي بأنه تقليدي إلى جانبين:

- الجانب المعرفي: المعارف الدينية التي يكتسبها الفرد من مؤسسات التنشئة الاجتماعية -خصوصا الأسرة والمسجد والمؤسسة التعليمية- يتلقاها بطريقة تلقينية واجترارية دون فهم للنصوص الدينية.

- الجانب السلوكي: الممارسات الدينية التعبدية كالصلاة والصوم، يتعلّمها الفرد بطريقة روتينية، وهي مجرد طقوس وحركات وهمهمات يؤديها على سبيل العادة دون وعي لمقاصدها ومعانيها السامية.

ومن ثم تتحمل مؤسسات التنشئة الاجتماعية القسط الأكبر من المسؤولية بتخليها عن وظيفتها التنويرية، واكتفت بإجهاد العقل في حفظ النصوص الدينية دون فهم أو تمحيص، مما قد يؤدي إلى استخدامها الخاطئ. ومن الأمثلة على استخدام الخاطئ للنص الديني الحديث المشهور ((النساء ناقصات عقل ودين))[2] لتأكيد دونية المرأة على الرجل

---

١ - عبد الحميد بن باديس، الإسلام الذاتي والإسلام الوراثي.. أيهما ينهض بالأمم؟ ،مقال من كتاب: آثار ابن باديس، جمع وتحقيق: د.عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ط ١، ج ٣، سنة ١٩٦٨، ص ص ٢٤٠، ٢٤١.

٢ - رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وتبرير سلطته المطلقة عليها بطريقة قهرية وقمعية. حتى إن بعض التيارات الدينية وغيرها تُصدّر في بعض الأحيان خطابا دينيا تقليديا متشددا، يُكرّس الجمود، ويحتكر الحقيقة، حتى لو اصطدمت مع ما توصّل إليه العلم الحديث من حقائق واكتشافات، مثل الرفض القاطع لاستخدام الحساب الفلكي في إثبات الأهلة، وإنكار كروية الأرض ودورانها وصعود الإنسان إلى سطح القمر..

ب- خرافي (السمة الأسطورية): التصقت العديد من الخرافات بالتدين الشعبي، نتيجة تفاعل الثقافة الشعبية بما تحويه من عادات وتقاليد وقيم بالية مع المعتقدات والممارسات الدينية، حتى غدت هذه الخرافات تبدو وكأنها من الدين. فمكانة المرأة على سبيل المثال نجدها قد ارتبطت بمجموعة من الأفكار الدينية المغلوطة حجّمت مكانتها وإسهامها في تنمية المجتمع، فالمرأة أحيانا لا يُنظر إليها كبنت وأخت وزوجة وأم، وإنما تُعتبر أنثى وعورة تجلب العار، وهي مصدر الفتن والشرور في المجتمع، فكان لابد من إخفائها وإبقائها في البيت اتقاء شرّها، وهكذا لا تزال تعمل الثقافة الذكورية السائدة في المجتمعات العربية على حرمان المرأة من مواصلة تعليمها، وتوليها المناصب العليا في عملها، باسم الدين وتحت طائلة منع الاختلاط، بل حرمانها من بعض حقوقها الدينية والمدنية كمنعها من حقها في الميراث.. بل صار يُعزى إليها ارتفاع الأسعار وضعف القدرة الشرائية كما في المقولة المصرية الشائعة: ((يستمر الغلاء ما لم تتحجب النساء)).

ج- قدري: أصبح هذا النمط من التدين قدريا عندما صارت التصرفات وأفعال العباد الاختيارية تُسند إلى العقيدة الجبرية، لتبرير

الممارسات الخاطئة للانفلات من المسؤولية. ولعلّ من أبرز الأمثلة: ارتفاع معدّلات ضحايا إرهاب الطرقات جراء الإفراط في السرعة، وعدم الالتزام بقوانين المرور واحترام الإشارات من طرف السائقين والراجلين على حد سواء، والتي غالبا ما تتسبّب حوادثها في إزهاق الأرواح والجروح والإعاقات المستدامة والخسائر المادية.. فكثيرا ما يحمّل مرتكبوها مسؤولية أفعالهم إلى عقيدة القضاء والقدر وأنها "مكتوب" ومقدّرة من عند الله، ليحاولوا عبثا أن يتخلصوا -بتفكيرهم القدري- من المسؤولية الدينية والمدنية المطلقة عن عواقب أفعالهم وجرائمهم. وما قيل عن إرهاب الطرقات يصدق أيضا على البناء العشوائي للسكنات المنتشرة كالفطريات، ومدى احترامها لمعايير البناء ومقاومتها للزلازل.

د- انسحابي: أسهم الخطاب المسجدي والخطاب الديني في وسائل الإعلام في إبعاد الدين عن الواقع المعيشي، عندما ركز خطابه على الحديث عن مواضيع الغيبيات والحياة الآخرة والجنة والنار والموت وعذاب القبر، وعلى التاريخ الإسلامي وسير الصحابة والسلف دون إسقاط على الواقع المعاصر، ومعالجة المشكلات الحقيقية التي يعيشها الأفراد عامة والشباب خاصة في حياتهم اليومية. ولا شك أن هذا النوع من الخطاب الديني الانسحابي أسهم في تغييب الدين عن دنيا الناس. والرسالة التي استطاع ترسيخها في عقول المتلقين تتمثل في أن الأهم بالنسبة للمسلم ما يناله في الآخرة وأن الحياة الدنيا لا قيمة لها وهي دار شقاء وتعب. ولعل هذا ما يفسّر أيضا رواج بعض البرامج الفضائية المتخصصة في تفسير الأحلام، والرقية من المس والعين.. والتداوي بالأعشاب تحت مسمى "الطب النبوي"، والتي بدورها قدمت خدمة مجانية

لبعض الهواة والمتطفلين لممارسة الشعوذة باسم الدين أو حتى الادعاء بتوصلهم إلى العلاج من بعض الأمراض المستعصية كالسرطان والسكري.

رابعا- الخاتمة:

نتبين مما سبق أن هناك عدة أنماط من التدين وليس نمط واحد، تنمّ كلها عن وجود تناقض أي فجوة بين تعاليم الإسلام وممارسة المتدينين لها في حياتهم اليومية، وهي أنماط لا تعكس صورة الإسلام المشرقة. وبالتالي يمكن القول إن التدين السائد في المجتمعات العربية مشوه ومزيف، وهو "لا عقلاني" وغير تنويري إذا ما أردنا استعارة مفاهيم كل من "ماكس هوركايمر" ***Max Horkheimer*** وزميله " ثيودور أدورنو ***T.W.Adorno***"، وهما من رواد النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت.

وقد تحقق الباحث (صاحب المقال) من صحة هذه النتيجة الأساسية، حيث أجرى مقابلات على عينة مقصودة، متكونة من ثمانية عشر(١٨) مستوجبا مصريا وجزائريا، تركزت المقابلات على طبيعة التدين السائد في المجتمع الذي يعيشون فيه، وعلى مؤسسات التنشئة الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية ودروها في التنشئة الدينية، ومن بين أهم النتائج المستخلصة ما يلي:

١- أكّد المستجوَبون في كلا البلدين على أن المجتمع الذي يعيشون فيه متدين بفطرته في عمومه، إلا أن التدين السائد مظهري وشكلي، يهتم بالواجبات المتعلقة بحقوق الله ويتهاون عن حقوق العباد.

٢- تتلوّن الممارسة الدينية بالمصالح الشخصية للأفراد وهذا في المعاملات وليس العبادات (التدين المصلحي).

٣- حِرص بعض الأفراد على الشكليات وتمسكهم بالرموز الدينية (التدين المظهري)، يكون أحيانا من أجل تسويق صورة إيجابية عن الذات، وكسب السمعة واحترام الناس، والاندماج في جماعة دينية.

٤- أكّد المستجوَبون على تعدّد أنماط التدين، فهناك نمط التديّن الغالي والمتشدّد، ويوجد نمط التديّن المعتدل الوسطي الذي يحاول أن يتماشى وأسلوب الحياة المعاصرة، وهناك نمط التدين الشعبي الذي يكون متأثرا بالقيم الاجتماعية والثقافة الشعبية السائدة.

٥- أكدّ المستجوبون على أهمية الأسرة والمسجد كمصدرين أساسيين في تنمية التدين. تليهما المدرسة وجماعة الأصدقاء ووسائل الإعلام والاتصال المختلفة، مع تأكيدهم على خطورة القنوات الفضائية ومواقع شبكات التواصل الاجتماعي في نشر ثقافة الجنس والجريمة والعنف بين الشباب، ومن ثم في إضعاف التدين لديهم.

٦- كما أكّد المستجوبون على تراجع دور الأسرة في التربية وغرس القيم الدينية والأخلاقية. وتراجع الرسالة الروحية للمسجد وكان هذا عاملا على انتشار الأفكار الدينية الشاذة والمتطرفة، والخروج عن المرجعية الدينية الوطنية التي كانت سائدة. كما تقلصت الرسالة التربوية للمدرسة بسبب ضعف وقلة برامج مادة التربية الإسلامية.